آنا فرويد وعلم النفس

(٣ ديسمبر ١٨٩٥- ٩ أكتوبر ١٩٨٢)

أ.هيام حمدى العنانى

نشأتها

آنا فرويد هى أول من تناول التحليل النفسى عند الأطفال، وهى ابنة العالم وطبيب الأعصاب الشهير سيجموند فرويد ومارثا بيرنيز، مارست خلال حياتها أعمالاً عديدة تتعلق جميعها بالأطفال فمن معلمة صف، إلى طبيبة نفسية، فكاتبة.

ولدت آنا فرويد فى النمسا وهى من مواليد عام ١٨٩٥م، ترتيبها السادسة من أصل ثلاثة ذكور وثلاث إناث، وكان الحمل بها غير متوقع إضافة إلى أن فرويد كان يتمنى أن يرزق بولدٍ، وتقول آنا عن ذلك : "لو كان هناك موانع حمل في حينها لما ولدت" ويرى بعض علماء التحليل النفسى أن هذه الأشياء أفضت بها إلى الشعور بالرفض، ومع هذا كله كانت أقرب أبناء فرويد له وشديدة الالتصاق به، وأخذت عنه اتجاهاته العلمية واهتماماته السيكولوجية، وقفت بجانب والدها وظلت ترعاه فى مرضه منذ إصابته بالسرطان سنة ١٩٢٣ وحتى وفاته فى لندن سنة ١٩٣٩.

تخصصت آنا فرويد فى علم النفس عند الطفل، حيث إن بداية حياتها العملية كانت فى مدرسة للأطفال ومن هنا أتى تعلقها بسلوك الطفل وما يحتويه من ردة فعل لا ينظر إليها البالغون بشكل صحيح.

فى عام ١٩٢٢ أصبحت آنا فرويد أحد أعضاء الجمعية النمساوية للتحليل النفسى، وخلال نهاية العشرينيات عملت على بحث لها متخصص فى طب النفس عند الأطفال التى تتراوح أعمارهم بين ٨ و١٢ سنة فى حين أنها لم تتطرق كثيرًا إلى أعمار أقل من ذلك.

انتقلت آنا فرويد للعيش فى بريطانيا عام ١٩٣٨ وكان لها دور هام خلال الحرب العالمية الثانية فى رعاية الأطفال واليتامى حيث اعتبرتهم الضحية الأولى والوحيدة لتلك الحرب الشنيعة. آنا فرويد لم تتزوج لكنها كانت تعتنى بأولاد أختها صوفى المتوفاة وتتشارك فى تربيتهم مع والدها فرويد، حيث وهبت نفسها لدراسة علم النفس، وبدأت حياتها العملية مدرّسة أطفال، وفى أثناء عملها كانت تدون الكثير من الملاحظات عنهم، وبدأ من هنا اهتمامها بعلم نفس الطفل.

آنا فرويد ووالدها

حياتها المهنية

مارست آنا التحليل النفسى وأصبحت عضوًا فى الجمعية النمساوية للتحليل النفسى سنة ١٩٢٢، وأُنتخبت رئيسًا للجمعية من عام ١٩٢٥ إلى عام ١٩٢٨، ورئيسًا لمعهد التدريب على التحليل النفسى فى فيينا حيث مقرها.

فى عام ١٩٢٧ أصدرت أول بحث لها عن اتجاهاتها فى تحليل نفسيات الأطفال وأسس

العلاج النفسى الخاص بهم. ويذكر فى تاريخ التحليل النفسى أن فرويد كان أول من حاول تحليل الأطفال نفسيًا فى الحالة المشهورة التى عالجها باسم "الصغير هانز" عام ١٩٠٦. إلا أن المحاولة الجادة كانت محاولة آنا فرويد وميلانى كلاين فى بداية الثلاثينات، حيث تمثل آنا المدرسة الأوروبية، بينما تمثل ميلانى المدرسة البريطانية فى التحليل النفسى للطفل، وتخصصت آنا فى الأطفال الكبار، بينما مارست ميلانى تحليل الأطفال الصغار.

فى عام ١٩٣٥ تولت "آنا" مسئولية معهد التدريب على التحليل النفسى فى فيينا، لكن تقدم القوات الألمانية النازية واحتلالها للنمسا، خلال الحرب العالمية الثانية، دفعها للحاق بوالدها حيث هاجرت آنا فرويد بشكل نهائى إلى لندن عام ١٩٣٨، لتنشىء برنامج وعيادة هامبستيد لعلاج الأطفال، والتى أعيد تسميتها بمركز "آنا فرويد" بعد رحيلها فى عام ١٩٨٢. وأثناء الحرب العالمية الثانية أسست مع الأمريكية دوروثى برلنجهام عددًا من دور الحضانة للأطفال اليتامى والمنكوبين والمُرحلين.

ألفت آنا فى تلك الفترة (١٩٤٢-١٩٤٣) ثلاثة كتب هى:" children in Wartime"،"Infants without Families"،"War and Children"

مساهمات آنا فرويد فى التحليل النفسى

قامت آنا فرويد، بالتركيز على الحياة الداخلية الخاصة مع البعد عن الأوهام، كما شرحت كيفية طغيان أحلام اليقظة على الوعى، وكان لها وجهات نظر على تربية الأطفال والتى شرحتها فى كتابها الأول فى عام ١٩٢٧ عن مقدمة التقنية فى تحليل الطفل، واشتبكت مع ميلانى كلاين على وجه الخصوص، اعتمدت آنا فرويد على تحليل الأطفال، فى مختلف المراحل كجزء كبير من العالم النفسى .

كان عملها الرئيسى فى عام ١٩٣٦، هو إقامة دراسة كلاسيكية على علم النفس وآليات الدفاع، كما ركزت آنا فرويد على تجربتها السريرية الخاصة، ولكن اعتمدت على كتابات والدها باعتباره مصدرًا موثوقًا لها فى رؤى النظرية، كما ساعدت على فهرسة وتشكيل رد الفعل، والعزلة، والتراجع، والإسقاط، والاستدماج، والتحول ضد النفس، والانعكاس والتسامى، ووضحت مفهوم آليات الدفاع، مع الاستمرار وزيادة التركيز على نظريات آنا ووالدها .

كانت أولى اهتماماتها الخاصة فى مرحلة الطفولة عن تطورات المراهقين مع التأكيد على كيفية زيادة المصالح الفكرية والعلمية والفلسفية لهذه الفترة، وقد ذكرت مشكلة النضج الفسيولوجى مع تكثيف الدوافع العدوانية إلى حد الهدوء التام، وتشكيلات رد الفعل، التى يبدو راسخًا فى بنية آنا .

فى عام ١٩٥٩ كانت كتابات آنا فرويد فى علم النفس ودراستها فى تنمية الطفولة المبكرة لطفولة العاملين في المهن الأكثر تنوعًا. يمكن القول أن إقامة آنا فرويد لسنوات فى لندن جعلتها أكثر تمييزًا في كتابات أوراق التحليل النفسى بما فى ذلك "حول الفقدان والضياع"، والتى يجب على الجميع قراءتها بغض النظر عن اهتمامهم بالتحليل النفسى، تحث فى هذه الكتابات على ضرورة الإخلاص فى الحياة حتى الموت .

كما ركزت بعد ذلك على البحث والملاحظة فى علاج الأطفال، حيث تشاركت آنا فرويد مع مجموعة من المحللين التنمويين للطفل البارز (والتى شملت إريك إريكسون، إديث جاكوبسون ومارغريت ماهلر) فى ملاحظة أعراض الأطفال من خلال متابعة النظرية التناظرية إلى الاضطرابات الشخصية بين البالغين، والتى غالبًا ما ترتبط بمراحل النمو .

فى الحياة الطبيعية أصدرت كتاب علم الأمراض فى الطفولة (١٩٦٥) ولخصت فيه استخدام الخطوط التنموية مع رسم النمو الطبيعى النظرى من التبعية للاعتماد على الذات العاطفى .

وفى أفكار الحياة الثورية، قدمت آنا نظرية التنموية الشاملة مع مفهوم خطوط التنموية، التى تجمع بين نموذج المحرك الهام مع والدها فى النظريات من خلال المزيد من العلاقات الموجهة نحو أهمية الوالدين فى عمليات تنمية الطفل، ومع ذلك كان الولاء الأساسى لها فى عمل والدها.

أشهر كتب آنا فرويد كان بعنوان "الأنا والميكانيزمات الدفاعية" أو "الأنا والآليات الدفاعية"، وبشكل عام تحدثت تلك الآليات عن خمس آليات دفاعية يعتمدها الطفل لتحقيق دور الأنا فى حياته وهى : الإنكار الخيالى عن طريق تخيل شىء ما، كما لو أن يرى أباه مجرد حيوان متوحش لضربه المستمر له، كذلك إنكار الطفل لواقعه قولاً وفعلاً، تقييد الأطفال للأنا خاصتهم، مثل عدم تعلم أحد الأطفال القراءة لأن زملاءه يستهزؤون به كلما قرأ، بالإضافة إلى عملية دفاع التعيين بالمعتدى، مثل تمثيل الطفل لدور الطبيب الذى عالجه وتقليده بحركاته، وأيضا الدفاع بالإيثار، جميع تلك الآليات قد تحدثت عنها آنا فرويد فى كتابها.

وقد شرحت آنا الاتجاه الجديد الذى أسّسته فى التحليل النفسى فى كتابها "الأنا والميكانيزمات الدفاعية Ego and the Mechanisms of Defense" حيث أكدت على دور الآنا فى الحياة النفسية وفى العلاج النفسى التحليلى، وقالت أن التحليل النفس لايمكن أن يصدق عليه اسمه إلا إذا اتجه إلى البحث فى الأنا وعدم الاقتصار على اللهو، وترى أن تحليل الميكانيزمات اللاشعورية التى يلجأ لها الأنا يمكن أن تطلعنا على التحولات التى طرأت على الغرائز عند المريض. ويتلخص دور المحلل من وجهة نظرها فى إزعاج الأنا باستثارة المكبوت، وتدمير ماقام به الأنا من أساليب توافقية مَرضية ولكنها من وجهة نظر الأنا تمثل أنساقًا دفاعية يحاول من خلالها أن يسيطر على الحياة الغريزية.

حددت آنا فرويد فى كتابها خمسة أنواع من الميكانيزمات الدفاعية وهى :

١. الإنكار عن طريق التخيل :

كأن يكره الطفل أباه المستبد، فيتخيله أسدًا مثلاً، ويتوهم أنه صديقه، وأنه يأتيه ويلاعبه ويتبعه. والطفل بهذا التخيل أنكر واقعه وهو أنه لا يحب أباه، وحولها إلى صورة متخيلة محببة. وهذه الحيلة يلجأ لها الأطفال.

٢. إنكار اللفظ والفعل :

ويتمثل فى سلوك الطفل عندما يقول مثلاً "أنا كبير مثل بابا" أو "أنا لا أكره الدواء، أنا أحبه جيدًا" أو "المعلمة تحبنى كثيرًا". كل هذه العبارات هى أمثله لإنكار الواقع إنكارًا يحمى به الطفل نفسه ضد عجزه وقلة حيلته واعتماده على غيره.

٣. تقييد الأنا :

مثاله طفلة فى العاشرة ذهبت لحفلة استعراضية لأول مرة، واستعدت لها بملابس جميلة، وفى الحفلة شاهدت طفلاً جميلاً استأثر على اهتمامها، إلا أنه نهرها وانتقد طريقتها فى اللبس والرقص، ومنذ ذلك اليوم صارت تكره الحفلات ولا تتردد عليها، ولم تجهد نفسها فى تعلم الرقص، وعوّضت نفسها بتقييد أناها بأن حرّمت على نفسها المباهج الأنثوية.

٤. دفاع التعيين بالمعتدى :

يتم من خلاله السيطرة على القلق بامتثال خصال المعتدى واستدماج صفاته. ومثاله الطفل الصغير الذى تألم من خلع أحد أسنانه قد يلعب مع أخته بأن يمثل دور الطبيب ويجعلها تمثل دور المريضة.

٥. الدفاع بالإيثار :

هو شكل من أشكال الإيثار، ومثاله مربية كانت فى طفولتها تحب الملابس الجديدة، وكانت تتمنى أن يكون لها أخوات، فقالت لها أمها مازحة : "إننا لا نستطيع أن نأتى لك بأخوات وملابس فى الوقت نفسه فهذا مكلّف، فإما هذا وإما ذاك" وكبرت الطفلة ولم تتزوج وامتهنت تربية الأطفال، وصارت تدافع عنهم أمام آبائهم كلما أرادوا ملابس جديدة.

كتابات آنا فرويد

فى الفترة من ١٩٦٦ــــ١٩٨٠ أصدرت آنا فرويد ٨ مجلدات فى نيويورك بجامعة إنديانا بنسلفانيا :

المجلد الأول : فى مقدمة التحليل النفسى : محاضرات لمحللين الطفل والمعلمين (١٩٢٢-١٩٣٥)

المجلد الثانى : آليات الدفاع (١٩٣٦)؛ (الطبعة المعدلة : (١٩٦٦)

المجلد الثالث : الرضع دون أسر.

المجلد الرابع : مؤشرات لتحليل الطفل وغيرها من العلاجات (١٩٤٥- ١٩٥٦)

المجلد الخامس : البحث فى عيادة طب الأطفال - علاج هامبستيد وعلاجات أخرى (١٩٥٦-١٩٦٥)

المجلد السادس : الحياة الطبيعية وعلم الأمراض فى الطفولة : تقييم التنمية (١٩٦٥)

المجلد السابع : مشاكل التحليل النفسى للتدريب والتشخيص، وتقنيات العلاج (١٩٦٦-١٩٧٠)

المجلد الثامن : علم النفس فى التحليل النفسى من التطور الطبيعى.

الوفـــــــاة :

توفيت آنا فرويد عن عمر يناهز ٨٦ عامًا، وذلك فى عام ١٩٨٢، بعد أن قدمت أعمالاً كثيرة حول طبيعة الذات عند الأطفال.

آنا فرويد مع والدها سيجموند فرويد سنة ١٩١٣

دار الكتب والوثائق القومية